



REVUE EGYPTIENNE
DES ÉTUDES HISTORIQUES

الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج علي

المجلة التاريخية المصرية

مجلة علمية محكمة تُصدرها

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

حقوق الطبع محفوظة
للهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب
99/9440

الترقيم المطبوع
2401-1687

الترقيم الدولي
977-5366-11-9

الترقيم الإلكتروني
3354-2735

موقع المجلة على بنك المعرفة <https://jejh.journals.ekb.eg/>

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

قطعة ٤ بلوك ٧ - المنطقة التاسعة - شارع د. رؤوف عباس - مدينة نصر - القاهرة

تليفون : ٠١١٢٧٣٨١٩١٢ - ٢٤٧٢٨٢٩٤ - ٢٤٧٢٨٢٩٦ - فاكس : ٢٤٧٢٨٢٩٨

Email: Seehist1945@yahoo.com



الهيئة المصرية العامة للكتاب



الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

المجلة التاريخية المصرية

REVUE EGYPTIENNE
DES ÉTUDES HISTORIQUES

تُصدرها

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
المراسلات - الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد
رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
egyptian.historical2021@gmail.com

المجلد الرابع والخمسون

القاهرة

م ٢٠٢٠

هَيْئَةُ التَّحْرِيرِ

- أ.د. أيمن فؤاد سيد - رئيس التحرير
أ.د. أحمد زكريا الشلق
أ.د. جمال مُعَوِّض شَقْرَةَ
أ.د. خَلْفَ عبد العظيم الميري
أ.د. أحمد الشربيني السيّد
أ.د. محمّد فوزي رَحِيل - سكرتير التحرير

الْهَيْئَةُ الْاِسْتِشَارِيَّةُ الدَّوْلِيَّةُ لِلْمَجَلَّةِ

- أ.د. إبراهيم القَادِرِي بونثيش (المَغْرِب)
أ.د. أحمد رَجَب محمد علي (مصر)
أ.د. إِسْحَاق تَاوَضْرُوس عبيد (مصر)
أ.د. أشرف محمّد مُؤَنَس (مصر)
أ.د. تُزْكَي بن فَهْد آل سَعُود (السَّعُودِيَّة)
أ.د. جوليت رَسِي (أَلْبَانَا)
أ.د. حسين سيّد عبد الله مُرَاد (مصر)
أ.د. السّيّد فِيلْفِل (مصر)
أ.د. عاصِم أَحْمَد الدُّشُوقِي (مصر)
أ.د. عبد الكَرِيم مَدُون (المَغْرِب)
أ.د. عبد الله بن محمّد المُنِيف (السَّعُودِيَّة)
أ.د. عَفَاف سَيِّد صَبْرَة (مصر)
أ.د. علاء الدّين عبد المُحْسِن شَاهِين (مصر)
أ.د. محمّد م. الأَزْناؤُوط (كوسوفو)
أ.د. محمّد صَابِر عَرَب (مصر)
أ.د. محمّد السّيّد عبد العَني (مصر)
أ.د. محمّد عيسَى الحَرِيرِي (مصر)
أ.د. محمّد إِسْمَاعِيل عبد الرّازِق (مصر)
أ.د. مُنِيرَة شَابُوتُو رَمَادِي (تُونِس)
Prof. Dr. Sylvie DENOIX (France)
Prof. Dr. Albrecht FUESS (Germany)
Prof. Dr. Nicolas MICHEL (France)
Prof. Dr. Tetsuya OHTOSHI (Japan)
Prof. Dr. Michel TUCHSCHERER (France)

الإخراج الفني وتصميم الغلاف : محمد أشرف عبد المقصود

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو الناشر

المحتويات

الصفحة

التواد الاجتماعي في مصر الرومانية في ضوء الوثائق البريدية	
نادر فتحي محمد	٣٢-٧
التطورات الاجتماعية وأثرها في ازدهار منطقة عسير خلال الفترة من (١٤٠٢ - ١٤٢٦هـ/١٩٨٢ - ٢٠٠٥م)	
سعيد بن سعد بن خاطر القحطاني	٦٢-٣٣
نشأة جامعة كمبريدج في العصور الوسطى	
طارق شمس الدين زاكر أبو المجد	٩٦-٦٣
من سرايفو إلى القدس عبر زيمون: الحاخام يهودا القلعي (١٧٩٨-١٨٧٨)	
رمز الانتقال من الصهيونية الدينية إلى الصهيونية السياسية	
محمد م. الأرنؤوط	١٢١-٩٧
إسهامات إبراهيم فوزي باشا في تدوين تاريخ مصر في منابع النيل في النصف الثاني من القرن ١٩	
أحمد عبد الدايم محمد حسين	١٦٥-١٢٣
ثورة ١٩١٩م وأثرها على الحركة الوطنية الجزائرية	
أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس	١٨٧-١٦٧
دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي	
ماجد الحسيني الحارثي	٢٢١-١٨٩



دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي

ماجد الحسيني الحارثي*

ملخص

مما لا شك فيه أن تشكيل المشرق العربي من خلال نشأة وقيام الدول العربية فيها في العصر الحديث قد ارتبطت بشكل وثيق للغاية بسقوط الدولة العثمانية، والظروف التي خلقها وقوع المنطقة العربية تحت هيمنة القوى الاستعمارية الأوروبية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، حيث لعبت مختلف العوامل والمكونات الاجتماعية والسياسية العربية في ذلك الوقت دورًا بالغ الأهمية ومتعدد المظاهر والأشكال والاتجاهات في رسم ملامح الدول العربية الناشئة بعد ذلك.

لقد شهدت فترة النصف الأول من القرن العشرين الميلادي بروز المكونات الاجتماعية والسياسية الفاعلة، والتي اتخذت صورًا عرقية وقومية وعشائرية، وأخرى دينية، طائفية ومذهبية، فضلًا عن بروز الحركات والتيارات السياسية ذات التوجهات الأصولية الدينية والتوجهات الليبرالية والتوجهات القومية والتحررية، بالإضافة إلى بروز العديد من الشخصيات والزعامات السياسية التي سطعت أسماؤها في تلك الفترة، وكان لها دور بالغ الأهمية في التأسيس والبناء والتكوين لعدد من الدول العربية

* كلية الآداب والعلوم الإنسانية - قسم التاريخ - جامعة الملك عبد العزيز بجدة.

ماجد الحسيني الحارثي

في منطقة المشرق العربي، وخاصة الدول ذات النظام الملكي والإمارات العشائرية في الجزيرة العربية والعراق والشام، خاصة وأن أغلب التوجهات السياسية آنذاك كانت تتجه نحو النظم الملكية، قبل أن تأتي الظروف المغايرة التي سمحت للنظم الجمهورية في الظهور بعد ذلك.

وإن لمن المهم لإدراك ومعرفة كيف نشأت وتطورت الأنظمة والدول العربية في العصر الحديث، دراسة طبيعة وماهية المكونات والتيارات والتنظيمات والهويات التي نشطت في تلك الفترة، نظرًا لما في ذلك من قيمة موضوعية وتاريخية تكشف عن الدروس والتجارب التي يمكن الاستفادة منها في مواجهة التحولات والإرهاصات التي تشهدها المنطقة العربية في العصر الراهن.

وبناءً على ذلك، اختار الباحث أن يكون هذا البحث بعنوان: «دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي».

والمكونات الاجتماعية كثيرة ومتعددة ومتباينة، لكن اتجاه البحث ينحصر في دراسة أدوار ومساهمات المكونات الاجتماعية التي عكست آنذاك واقع التنوع العرقي وطبيعة المجتمع (الحضري، القبلي)، خاصة في ظل المواقف والاتجاهات المتباينة لتلك المكونات إزاء السياسات الاستعمارية الأوروبية التي بسطت نفوذها على المنطقة العربية في تلك الفترة.

وتفصل هذه الأدوار في مبحثين أساسيين هما :

أولاً: دور التنوع العرقي في مجتمع المشرق العربي.

ثانياً: دور المكونات الحضرية والقبلية.

فرضية البحث

وتتمثل في أن للمكونات الاجتماعية العربية في النصف الأول من القرن العشرين

دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي

دورًا بالغ الأهمية ومتعدد المظاهر والأشكال والاتجاهات، ساهم في رسم ملامح الدول العربية الناشئة.

أهمية البحث

وتكمن في إبراز الدور الذي لعبته المكونات الاجتماعية في تشكيل المشرق العربي في تلك الفترة، سواء أكانت متماهية مع الاستعمار أو مقاومة له.

Abstract

There is no doubt that the formation of the Arab Mashreq through the emergence and establishment of Arab countries in it in the modern era has been very closely linked with the fall of the Ottoman Empire, and the conditions created by the fall of the Arab region under the domination of European colonial powers after the end of the First World War, where various factors and social components played Arab politics at that time played a very important and multi-faceted, shapes and trends in shaping the features of the emerging Arab countries after that.

The period of the first half of the twentieth century AD witnessed the emergence of active social and political components, which took ethnic, national, and tribal forms, as well as religious, sectarian and sectarian forms, in addition to the emergence of political movements and currents with religious fundamentalist tendencies, liberal tendencies, and nationalist and liberal orientations, In addition to the emergence of many personalities and political leaders who shone their names in that period, and had a very important role in the foundation, construction and training of a number of Arab countries

ماجد الحسيني الحارثي

in the Arab Mashreq region, especially the countries with the monarchy and the tribal emirates in the Arabian Peninsula, Iraq and the Levant, especially since most of the trends Politics at that time were moving towards monarchies, before the different conditions that allowed republican regimes to emerge after that came.

It is important to understand and know how the Arab regimes and states emerged and developed in the modern era, to study the nature and nature of the components, currents, organizations and identities that were active in that period, given the objective and historical value that reveals the lessons and experiences that can be used in the face of the transformations and the precursors they are witnessing. The Arab region in the current era.

Accordingly, the researcher chose to have this research entitled: "The Role of Social Components in Shaping the Countries of the Arab Mashreq in the First Half of the Twentieth Century AD".

The social components are many, multiple and varied, but the direction of the research is limited to studying the roles and contributions of the social components that at that time reflected the reality of ethnic diversity and the nature of society (urban, tribal), especially in light of the differing positions and trends of these components vis-à-vis the European colonial policies that extended their influence on the Arab region in that Period.

These roles are separated into two main topics:

First: The role of ethnic diversity in the Arab Mashreq society.

Second: the role of the urban and tribal components.

*

* *

المقدمة

تفاوتت التركيبة الاجتماعية بين بلدان المشرق العربي (العراق، بلاد الشام، مصر، الجزيرة العربية) من حيث التعددية والتنوع العرقي من جهة، ومن حيث طبيعة المجتمع الحضري والبدوية والطابع القبلي والعشائري من جهة أخرى، ومع ذلك فإن هذا التفاوت لم يخل من بعض القسّمات المشتركة بين هذه الأقطار العربية، والتي تفاوتت بدورها بين قطر وآخر، الأمر الذي لا بد وأنه انعكس على دور هذه المكونات في بناء وتكوين الدولة العربية المعاصرة في النصف الأول من القرن العشرين، وهي الفترة التي شهدت الكثير من التحولات الحاسمة في الاتجاه الذي رسمته القوى والحركات الوطنية ذات التوجه التحرري والمناوئة للاستعمار والمشروعات الامبريالية التي كانت طاغية في تلك المرحلة.

لقد سادت في بداية مرحلة الانتقال من التقليدية إلى التحديث قيم اجتماعية وسياسية متباينة بين الوحدات الاجتماعية والسياسية، حيث احتاجت البيئة الداخلية في هذه الأقطار العربية إلى نوع من التصالح أو بناء تنشئة سياسية جديدة، وانصفت علاقات نظام الحكم مع القوى الغربية بنوع من التبعية والاسترضاء والتوافق المتبادل^(١).

يرى الباحث، أن الطابع البدوي العشائري والقبلي والذي غلب عليه العنصر العربي كان الأكثر سيادة وشيوعاً في معظم أقطار المشرق العربي ذات الطبيعة الصحراوية في وسط وشمال الجزيرة العربية وأجزاء من العراق وبلاد الشام ومصر، بالإضافة إلى الطابع القروي والريفي الذي وجد في المقابل في المناطق التي اعتمدت

(١) باسم الطويسي: دور العوامل الاجتماعية في التجنيد السياسي - دراسة في النخب الحكومية

الأردنية في بداية مرحلة التحديث، عمّان - جامعة الحسين بن طلال، ٢٠١١، ٩.

دومًا على الإنتاج الزراعي، في العراق وبلاد الشام ومصر، وهذه الأخيرة ارتبطت بالمكونات العرقية غير العربية كالأكراد والأرمن والكلدان والتركمان في العراق وسوريا، وأيضًا الأقباط في مصر، أما المكونات الحضرية فقد تركزت غالبًا في المدن والموانئ الرئيسية.

أولاً: دور التنوع العرقي في مجتمع المشرق العربي

تعتبر الدولة المعادل الموضوعي للتنظيم البشري الحديث، إذ أن الدولة قد جاءت متزامنة مع الفرد والمجتمع، وذلك في سياق الاشكاليات المتعلقة بنشأتها وتطورها ومن ثم التساؤل عن وظائفها ووسائلها سواء في الظروف الزمانية أم المكانية، تحافظ بالضرورة على محتواها ما دامت هي ظاهرة اجتماعية عامة^(١). وهي الاشكالية التي تزداد تعقيداً كلما ازدادت مظاهر التعددية والتنوع العرقي والطائفي بين سكان الدولة. برزت اشكاليات التمايز العرقي في البلاد العربية بعد انهيار الدولة العثمانية ودخول المنطقة بشكل كلي تحت سيطرة النفوذ الاستعماري الأوروبي، بدرجات متفاوتة في الأقطار التي اتسمت بطابع التعددية والتنوع العرقي، وهي الاشكاليات التي اتخذت طابعاً من الحدة في العراق، كما كان لها أثراً نسبياً في توجيه مسار بناء الدولة العربية في حاضرة الشام ومصر أيضاً، في حين أن تلاشت هذه الاشكاليات في مناطق الجزيرة العربية وبادية الشام، نظراً لكون أغلب السكان في هذه المناطق ينتمون إلى الأرومة العربية.

ومما لا شك فيه أن جملة من العوامل في المناطق التي تنسم بطابع من التعددية والتنوع العرقي يمكن أن تؤدي إلى ما يعرف بـ «عنف الأقليات»، والتي تشكل تهديداً لأمن الدولة ووحدتها الوطنية، ناهيك عن بقاءها واستمرارها. كما أن تعامل

(١) عمر الحضرمي: «الدولة الصغيرة: القدرة والدور - مقارنة نظرية»، مجلة المنارة، المجلد

دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي

الأنظمة السياسية مع جماعات الأقليات العرقية، يلعب دورًا هامًا في تحديد طبيعة العلاقة بين الطرفين، فالدول التي لا تراعي خصوصيات الأقليات وظروفها وأوضاعها قد تلجأ إلى اتباع سياسات تعامل قد تكون عواقبها وخيمة^(١). فقد عانت هذه الدول من صراعات أثنية مهلكة، رافقها حالات واسعة من الهجرة واللجوء بسبب الصراعات والخلافات الاجتماعية والعرقية والإبادة الجماعية والافتقار إلى الأمن الداخلي، كان وراءها فقدان المؤسسات السياسية المستقرة، والتي اتسمت بالتقلبات الكثيرة وبغياب الشرعية الشعبية للأنظمة السياسية، الأمر إلى أدى غالبًا إلى العديد من الانقلابات العسكرية التي أتت بحكم يفتقد إلى الخبرة ويقوم في أساسه على العلاقات الشخصية والقبلية^(٢). وهذا ما ينطبق على مسار الدولة العراقية الحديثة منذ نشأتها في عشرينيات القرن الميلادي الماضي.

يتألف سكان العراق من الناحية العرقية من مكونين رئيسيين هما المكون العربي والمكون الكردي، بالإضافة إلى مكونات عرقية أخرى تمثل أقليات استوطنت العراق منذ أقدم الأزمنة مثل التركمانية والآشورية والكلدانية والآرامية، وقد شكلت بمجموعها النسيج الاجتماعي للعراق^(٣).

اعتمد قيام الدولة العراقية على توافقات نظام البنى الاجتماعية والجماعات الفاعلة والأنساق الأيديولوجية المرتبطة بهذه التشكيلات والبنى، إذ أن ظهور الدولة العراقية في أعقاب الحرب العالمية الأولى شكل انتقالية نوعية بعد قرون طويلة من الهيمنة العثمانية، التي تركت ورائها مجتمعًا ذا طابع عرقي وطائفي، فجاء الاستعمار البريطاني

(١) خيرة وفيقي: تأثير المسألة الكردية على الاستقرار الإقليمي، رسالة ماجستير، قسنطينة - الجزائر: جامعة مستوري، ٢٠٠٥، ٢٥.

(٢) عمر الحضرمي: مرجع سابق، ٦٦.

(٣) إياد عايد والي البديري، التركيب الاثنوغرافي لسكان العراق وتحليل أثره في بناء الدولة واستقرارها، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد (١٣)، العدد (١)، (٢٠١٠):

ماجد الحسيني الحارثي

وعمل على بناء دولة جديدة تجمع خليطاً متعددًا من القوميات والطوائف التي لها تاريخها الخاص وثقافتها المباينة، في كيان دولة سياسية مركزية صنعها القرار البريطاني؛ وهو القرار الذي منح قيادة الدولة للأمير فيصل بن الشريف حسين، والذي قام بتأسيس جيش ساد فيه العنصر العربي وجرى اعتباره القوة الضامنة لوحدة الدولة المركزية، فضلاً عن استخدام هذا الجيش في تطويع الجماعات العرقية والدينية من أجل إذابة خصائصها القومية والثقافية في جسم الدولة الناشئة^(١).

وسنأخذ النموذج الكردي كمثال على ذلك، حيث يعتبر أبرز النماذج حضورًا في مسار بناء الدولة العراقية؛ فقد كان الأكراد في العراق في حالة ثورة مستمرة منذ تأسيس الدولة العراقية بعد الحرب العالمية الأولى، وهو الوضع الذي فرضته ثلاثة عوامل رئيسية: أولها أن الأكراد في العراق يشكلون نسبة أكبر من السكان من تلك التي يشكلونها في البلدان الأخرى (تركيا، إيران، سوريا، الأردن)، وتبعًا لذلك ورغم عددهم الأصغر فإنهم مثلوا كتلة لها وزنها وخطورتها في العراق أكثر من أي بلد آخر، وهو ما مكنهم من لعب دور أكبر من أقرانهم في الدول الأخرى، أما السبب الثاني فهو أن العراق كدولة جديدة كانت لها شرعية أقل من تركيا وإيران – القائمتان منذ قرون – رغم الأقليات الكردية الكبيرة فيها، فيما يتمثل العامل الثالث في انقسام العراق نفسه إلى طوائف وأقليات أخرى، ومثل هذا التنوع كان وما زال يثير الجدل والشكوك حول مستقبل الدولة العراقية^(٢).

على الرغم من أن الأكراد خاضوا صراعاتهم منذ القرن الثامن عشر ضد العثمانيين، إلا أن بروز الاتجاه القومي لديهم كمحرك سياسي كان أقوى منذ بداية

(١) فايز عبد الله العساف: الأقليات وأثرها في استقرار الدولة القومية – أكراد العراق نموذجا، رسالة ماجستير، عمان – جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١٠، ١٣.

(٢) مايكل إم غينتر: كورد العراق: آلام وآمال، ترجمة: عبد السلام النقشبندي، أربيل – كردستان العراق: دار اراس للطباعة والنشر، ٢٠١٢، ١٣.

دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي

القرن العشرين، والذي اتخذ أبعادًا جديدة بعد الحرب العالمية الأولى^(١). فحتى عام (١٩٢٠م) كانت معاهدة سيفر قد أعطت الأكراد حق الحكم الذاتي، وكذلك اتفاقية لوزان (١٩٢٣م). في الوقت نفسه كان البريطانيون والعراقيون قد أصدروا بيانات اعترفت بشكل نظري بحقوق الأكراد في الحكم الذاتي، عبر عنها الإعلان المشترك بين بريطانيا والعراق الملكية الذي رفع إلى الأمم المتحدة في (١٩٢٢م)، وجاء فيه الاعتراف بحق الحكم الذاتي للأكراد داخل حدود مملكة العراق^(٢).

لم ترهق الدولة العراقية مشكلة سياسية أو اقتصادية مثلما أرهقتها مشكلة التنوع الإثني (العراقي)، فقد استنزفت المشكلة الإثنية/السياسية الكثير من موارد الدولة وأدخلتها في صراعات جانبية وتنافس سياسي وانقلابات عسكرية للوصول إلى السلطة أخرجت كثيرا من تطور العراق كدولة نفطية حديثة، فضلا عن أنها ساهمت في إضعاف دور العراق والتقليل من وزنه السياسي على المستوى الإقليمي والدولي، لاسيما وأن الصراع على السلطة في العراق ظل مستمرًا منذ نشأة الدولة العراقية بصيغتها الملكية عام (١٩٢١م) وحتى اليوم^(٣).

وعلى هذا الأساس، يؤكد الباحث على أن المسألة الكردية في العراق ظلت تُحمل على محامل غير جادة في حلها ومعالجتها وفق وجهة النظر الكردية، أو حتى وفق الحقوق المعترف بها للأكراد، وفي المقابل استمرت التوجهات الكردية مناوئة للدولة المركزية في العراق سواء في فترة الملكية العراقية تحت الانتداب (١٩٢١ - ١٩٣٦م)، أو في فترة استقلال مملكة العراق (١٩٣٧ - ١٩٥٨م)، فكانت المسألة الكردية من أخطر الأشكاليات التي أعاقت مسار بناء الدولة العراقية الحديثة واستقرارها، فضلًا عن مساهمتها النسبية في سقوط الملكية وقيام الجمهورية.

(١) خيرة وفيي: مرجع سابق، ٥٨.

(٢) مايكل إم غينتر: مرجع سابق، ١٤.

(٣) إياد عايد والي البديري: مرجع سابق، ١٦١.

ماجد الحسيني الحارثي

في (١٩٣٠م) ظهر شعور قومي كردي عندما اندلعت المظاهرات والإضرابات في مدينة السليمانية، ولأول مرة يبدو أن القيادة الكردية بدأت تتحرك بعيداً عن الريف العشائري والاتجاه الديني وأنها توجهت إلى المدينة وطبقتها الوسطى، ثم أن التغيير في الحركة الوطنية الكردية اتخذ منحاً آخر بظهور القيادة البارزانية بقيادة مصطفى البارزاني بعد هزيمة الشيخ محمود الذي كان قد نصب نفسه ملكاً للأكراد، وخاض صراعاً مع الملكية الهاشمية المركزية في العراق انتهى بهزيمته. في حين بدأ تأثير البارزاني كبيراً وعميقاً على الحركة القومية الكردية، لاسيما وأنه احتفظ ببعض سمات القائد العشائري^(١).

ثانياً: دور المكونات الحضرية والقبلية

كان توزيع السكان في بلاد المشرق العربي حتى منتصف القرن العشرين شديد الوضوح ضمن ثلاث مجموعات بشرية كبيرة: السكن المدني، السكن الريفي أو القروي، السكن الصحراوي أو القبلي، وهي الأنماط المتميزة اجتماعياً عن بعضها البعض داخلياً، فبينما خضعت التجمعات المدنية للقانون، فقد ظلت العشائر والقبائل تخضع للأعراف والتقاليد، في حين ظل المجتمع الريفي القروي يشكل حلقة الوصل الرئيسية بين المدينة والصحراء، فتم استتباع سكان مناطق الأرياف للمدينة أولاً، ثم استخدام الأرياف وتوظيفها كنقطة انطلاق لغزو الصحراء وإخضاع جماهير البدو^(٢). استفادت القوى الاستعمارية من نتائج الحركة الإصلاحية التي كانت قد تبنتها الدولة العثمانية في أواخر عهدها والتي ساهمت في تنامي النشاط التجاري والاقتصادي، الذي أدى بدوره إلى استقرار بعض القبائل المتنقلة وتوطنها وتحول النشاط الاقتصادي لتلك القبائل من تربية الحيوانات إلى الزراعة، حيث استحوز

(١) مايكل إم غينتر: مرجع سابق، ١٦.

(٢) مسعود ضاهر: المشرق العربي المعاصر من البداوة إلى الدولة الحديثة، بيروت - معهد الإنماء

العربي، ١٩٨٦، ٧٦.

دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي

رؤساء العشائر على مساحات واسعة من الأرض وحتى أوائل القرن العشرين كانت قد تركت بأيدي الشيوخ ووجهاء القبيلة مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية إضافة إلى سيطرة البعض منهم حتى على مصادر الري^(١).

كانت ظواهر التحول والتحديث المتسارع التي شهدتها المجتمع في العراق وبلاد الشام فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية – والتي غلبت عليها التأثيرات الأوروبية المباشرة – أقل بروزاً بين القبائل البدوية وفي قرى الريف منها في المدن الكبرى. ومع ذلك فقد احتفظ ملاك الأراضي الزراعية بهيمنتهم وتعسفهم بحق الفلاحين الصغار، بينما ظلت القبائل البدوية تحت سيطرة الانتداب الأوروبي (الفرنسي والبريطاني)، من حيث تم اخضاعها بشكل مباشر لأجهزة امبريالية مباشرة، لم يكن فيها لقوى المجتمع الوطني أي سلطة مباشرة عليها، لاسيما وأن المكون القبلي والبدوي كان يقابل بازدراء من قبل المكونات الحضرية والريفية^(٢).

استطاع ملاك الأراضي الزراعية في المناطق الريفية سواءً في العراق أو بلاد الشام تكوين طبقة حضرية قادرة على أن تمدد نفوذها إلى المدن، التي هيمنت عليها دائماً الأعيان المتحضرة والتي سكنت في المدن وأيضاً التجار، فضلاً عن احتفاظ هذه الفئة بسلطاتها الاجتماعية على مناطق الريف التي جاءوا منها والمحيطة بتلك المدن. فقد كانت هذه القوى بسبب موقعها السياسي/ الإداري في النظام العثماني هي المؤهلة فعلاً للعمل السياسي في مرحلة ما بعد انهيار الدولة العثمانية، حيث لعبت دوراً فاعلاً في البحث عن بديل في إطار الصراعات الدولية بين قوى الاستعمار الأوروبية، لكن أهليتها في أن تشكل السلطة البديلة اصطدمت في عدم تمثيلها مصالح جمهور واسع، فقد كانت تمثل

(١) حيدر صبري شاكر الخيواني: «جذور التحديث الاجتماعي في العراق (١٨٥٠-١٩١٤) -

دراسة تاريخية»، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العدد (١٢)، حزيران (٢٠١٣)، ٤١.

(٢) ستيفن همسلي لونغريغ: تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ترجمة: بيار عقل،

بيروت: دار الحقيقة، د. ت، ٣٥٥.

ماجد الحسيني الحارثي

في أغلب الأحيان مجموعة من العائلات ذات الجمهور المحدود في الأحياء والقرى، فضلاً عن صراع العائلات فيما بينها على السلطة والمناصب الفاعلة في الدولة^(١).

في المقابل، ونتيجة ارتباط المكونات القبلية البدوية المباشر بالقوى الاستعمارية ودخول الكثير من أفرادها وشيوخها تحت ظل السلطات الاستعمارية، كان لعامل العصية القبلية دورًا بالغ الأهمية في بناء وتكوين المشروعات السياسية في المنطقة. فقد استطاعت بعض العصيات القبلية من أن تتحول إلى دولة، لاسيما في تلك الحالات التي ساهمت فيها تلك العصيات القبلية بشكل مباشر في ولادة كيانات التجزئة في المشرق العربي. فهناك قبائل أدمجت في كيانات التجزئة كفلسطين وسوريا والعراق والأردن واليمن، وهناك أيضًا قبائل سيطرت لتؤسس دولًا كبيرة كالسعودية، وهناك قبائل تحولت إلى إمارات ومشيخات. واستخدمت الهجرة لتغطية النقص الحاد في السكان، كالكويت وقطر والبحرين والإمارات.. وأغلب هذه الكيانات السياسية ولدت تحت الارتباط التبعية المباشر بالسيطرة الخارجية، بفعل الوجود العسكري الأوروبي المباشر بعد سقوط الدولة العثمانية^(٢).

كانت بريطانيا قد وقعت مع الكويت اتفاقية الحماية مبكرًا في ٢٣ يناير كانون الثاني سنة (١٨٩٩م)، والتي مكنت بريطانيا من تأكيد نفوذها في الكويت ومواجهة التنافس الأوروبي عليها، مما اضطر الدول الأوربية إلى الإقرار بالأمر الواقع والاعتراف بالنفوذ البريطاني في الكويت، في الوقت نفسه الذي اعتبرت فيه هذه الاتفاقية بمثابة ضربة موجبة للدولة العثمانية، وتهديد لنفوذها ومصالحها في العراق^(٣).

(١) وجيه كوثراني: بلاد الشام في مطلع القرن العشرين: السكان والاقتصاد وفلسطين والمشروع الصهيوني - قراءة في وثائق الدبلوماسية الفرنسية، بيروت - المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٣، ٨٥.

(٢) مسعود ضاهر: مرجع سابق، ٨ - ٩.

(٣) GRAVES PHILIP, The life of Sir Percy Cox, (London, 1951). 101.

دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي

وبحسب ما تشير إليه الوثائق البريطانية، فقد جاءت بالفعل ردود فعل الدولة العثمانية على اتفاقية الحماية كبيرة، حيث مارست ضغوطاً كبيرة على الشيخ مبارك زعيم عشيرة آل الصباح الحاكمة في الكويت، من خلال إعادة حمدي باشا والياً على البصرة لدعم انشقاق شقيقا مبارك عليه، على أساس أن تأييد الدولة العثمانية لذلك الانشقاق ينطوي على تأكيد لسيادتها على الكويت. الأمر الذي دعا بريطانيا إلى تفعيل اتفاقية الحماية تحسباً لأي احتمال لهجوم عسكري عثماني على الكويت، فأصدرت تعليمات للقوة البحرية لمنع الهجوم المتوقع. كما اقترح السفير البريطاني في الأستانة وجوب توجيه إنذار للباب العالي قبل القيام بأعمال عسكرية^(١).

وهو الأمر المتوقع، حيث أخذت سيطرة الدولة العثمانية منذ نهاية القرن التاسع عشر على شبه الجزيرة العربية تضعف، في الوقت الذي ركزت فيه بريطانيا على تعزيز معاقلها بتوفير وسائل الاتصال بالخليج العربي والبحر الأحمر والمحيط الهندي، وجميعها طرق اتصال حيوية بالهند، وحفاظاً على هذا الاتصال أقامت بريطانيا شبكة من العلاقات مع المكونات الاجتماعية وعلى رأسها الحكام المحليين، في حين أنها حرصت على الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع اسطنبول. وتتضح هيمنة بريطانيا غير المباشرة على المنطقة من المعاهدات التي أبرمتها في المنطقة؛ مثل المعاهدة التي وقعت بين بريطانيا وشيخ الكويت في عام (١٨٩٩م)، والتي وفرت للكويت الحماية مقابل التبعية، وبحلول عام (١٩١٣م) كانت بريطانيا قد زادت بشكل كبير من نفوذها في منطقة الخليج. إذ في نفس هذا العام أبرمت اتفاقية مع

(١) F. O. 78/5114 Memorandum on Kuwait Confidential Foreign office (secret 29 Oct. 1901).

1901). And F. O. 78/5114 from Sir Nichola O'Conor to Lord Salisbury No. 228 (secret).
نقلًا عن: ميمونة خليفة العذبي الصباح: ردود الفعل التركية على اتفاقية الحماية البريطانية للكويت - دراسة مقارنة بين الوثائق الإنجليزية والعثمانية، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت، المجلد (١٥)، العدد (٥٩)، ١٩٨٩، ١٤٣ - ٢٠١.
١٤٨.

الدولة العثمانية أكدت سيطرتها تلك^(١).

كانت التوجهات القبلية ذات الطموحات المحدودة في تأسيس دول عربية صغيرة على أساس قبلي وعشائري تحظى باستجابة ودعم بريطانيين دائماً في تلك المرحلة، حتى المشروعات الطموحة منها، كثورة الشريف حسين جرى توظيفها في اتجاه تحطيم النفوذ العثماني في الجزيرة العربية والعراق وسوريا واليمن، الأمر الذي عبر عنه (توماس لورانس Thomas Lawrence) الذي كان قائداً ميدانياً في الثورة العربية الكبرى (١٩١٦م) في إحدى رسائله السرية، حيث أكد فيها على أن «نشاط (الشريف حسين) كان مفيداً لبريطانيا، لأنه يتماشى مع أهدافها المباشرة، والمتمثلة في تفتيت الجبهة الإسلامية وهزيمة وتمزيق الإمبراطورية العثمانية... وإذا عولج العرب بطريقة مناسبة سيظلون في حالة من التشرذم السياسي، نسيجاً من الإمارات الصغيرة المتنازعة وغير القابلة للتماسك»^(٢).

هكذا، تمكنت بريطانيا من تحويل مناطق الخليج العربي وقبائله ومشيوخاته وسلطنته إلى محميات تابعة للتاج البريطاني في مطلع القرن العشرين، وبدأت تتوغل نحو داخل الجزيرة العربية، حيث كانت الدولة العثمانية لا تزال تحافظ على مواقع قوية بين شيوخ القبائل. ولذلك أوكلت بريطانيا إلى حلفائها المحليين مهمة غزو القبائل الموالية للعثمانيين وإجبارها على خوض معارك منهكة، على إثرها صعقت قوة ابن سعود في الجزيرة العربية، والذي عمل على القضاء على نفوذ العثمانيين تماماً^(٣). وفي عام (١٩١٣) جرى عقد اتفاقية الخليج بين بريطانيا والسلطنة العثمانية، والتي اعترف

(١) جوزيف كوستنر: العربية السعودية (١٩١٦ - ١٩٣٦) من القبيلة إلى الملكية، ترجمة: شاكر سعيد، القاهرة - مكتبة مدبولي، ب.ت، ٧.

(٢) PHILLIP KNIGHTLEY AND COLIN SIMPSON, The Secret Lives of Lawrence of Arabia, (٢)

(New York, McGraw-Hill Book Company, 1969). 60-61.

(٣) مسعود ضاهر: مرجع سابق، ١١٧.

دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي

العثمانيون بموجبها بمشيخات الخليج واستقلال الكويت ودخولها في كنف الحماية البريطانية، وكذلك بالنسبة لقطر والبحرين ومسقط. كما سارع الادريسي - زعيم بعض القبائل اليمنية - إلى توقيع اتفاقية مماثلة مع بريطانيا في عام (١٩١٥) (١).

فرضت القوى الاستعمارية الأوروبية في خضم صراعها مع العثمانيين، على القبيلة العربية أن تواجه أزمته الأولى مع نشوء الدولة الحديثة، أو مع وجود كيان مركزي، الأمر الذي ظهر بوضوح جلي منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، بدءاً من الاحتكاك بين قبائل الشمال والسلطة العثمانية التي سعت إلى توطينهم، أو بعد ذلك مع نشوء الدولة الإقليمية الحديثة في العراق (١٩٢٠م) وإمارة نجد (١٩٢٠م)، فقد جاء تشكيل كيان سياسي جغرافي بالمفهوم الحديث للدولة، ليمثل عائناً وسداً منيعاً في وجه الانسيابية التي كانت تتمتع بها حركة القبائل العربية منذ آلاف السنين (٢).

في نفس السياق، ظهرت إمارات الساحل المتصالح بالإضافة إلى الكويت والبحرين ومسقط (عمان)، أما في سواحل اليمن وحضرموت فجرى تقسيمها بين عدة عائلات قبلية: الخاطري، الوحيددي، والقعيطي، وغيرها، وكانت الاتفاقيات التي تعقدها بريطانيا مع هذه العائلات تلزم بأن يوقع عليها شيوخ القبائل الأخرى من مشايخ البدو في جنوب اليمن (٣).

لم تكد الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها، إلا والكثير من القبائل في الجزيرة العربية تحت زعامة شيوخها المحليين قد أقامت علاقات مباشرة مع السلطات البريطانية، وفي الوقت الذي تمكنت فيه بريطانيا من التخلص من الشريف حسين بضغط قوي من هذه القبائل التي قامت بدعم ابن سعود للتخلص من آل الرشيد.

(١) مسعود ضاهر: مرجع سابق، ١١٩.

(٢) غانم النجار: القبيلة والدولة في الكويت والجزيرة العربية، الكويت - جامعة الكويت،

١٩٩٦، ١.

(٣) مسعود ضاهر: مرجع سابق: ١٢٣ - ١٢٤.

ماجد الحسيني الحارثي

فتصدرت الأسرة السعودية حكم الحجاز وعسير ونجد وحائل وسمت الدولة باسمها^(١). ففي رسالة مؤرخة بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٩٠٨، من القنصل البريطاني (جورج ديفي George Devi) في دمشق موجهة للسير (جيرارد لاوثر Gerard Luther)، يؤكد فيها بأن «سعود بن رشيد بعد مقتل أخيه سلطان لم يظهر أي شجاعة أو كفاءة في الإدارة، وإن حكمه محصور بالكاد في بلدة حائل، وأن عبد العزيز بن سعود أصبح أمير نجد فعلاً الذي لا ينازع، والمعترف بحكمه في الرياض والقصيم، وعلى جميع العشائر البدوية في نجد، وحتى سعود بن رشيد نفسه يعترف بأن اماراته في حائل ليست سوى تابعة لسيادة ابن سعود»^(٢). واستمر هذا الحال طوال عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين.

لقد ظلت السياسات البريطانية متسقة مع ما سعت إليه بريطانيا في السنوات اللاحقة، على نحو ما تشير إليه رسالة من نائب الملك البريطاني في الهند إلى وزارة الهند في ٢٧ فبراير (١٩١٤م)، والتي أكد فيها على ضرورة الاستفادة من موقف ابن سعود لوضع وكيل محلي في القطيف، لتأمين الأهداف البريطانية على ساحل الخليج العربي. إذ أن مثل هذا التوجه قد مهد لبريطانيا من أن تتمكن من احتلال العراق، من خلال ما أشارت إليه الرسالة من تحسن علاقات ابن سعود مع شيوخ قطر وعمان والإمارات العشائرية الأخرى التي كانت تحت الحماية البريطانية آنذاك^(٣).

سعت بريطانيا سياسياً وعسكرياً إلى الحد من سيطرة العثمانيين ونفوذهم في الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام، بل وإلى إنهاء هذه السيطرة تماماً، من خلال تبني مشروع «الثورة العربية» بزعامة الأسرة الهاشمية في مكة، وبقيادة الشريف حسين

(١) مسعود ضاهر: مرجع سابق، ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) نجدة فتحي صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية: نجد والحجاز (المجلد الأول)

١٩١٤ - ١٩١٥، بيروت، دار الساقى للطباعة والنشر ١٩٩٦، ١: ١٤٢ - ١٤٣.

(٣) المرجع السابق: ٢٢٢.

دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي

الذي نصب نفسه ملكا للعرب، وقائداً للثورة التي لم يكن هدفها مقاومة العثمانيين عسكرياً فحسب، بل أيضاً إقامة دولة عربية تحميها بريطانيا، وقد حظيت تلك الأهداف بتأييد القوميين العرب في سوريا. في الوقت الذي كان فيه المسؤولون البريطانيون المرابطون على طول الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية؛ ابتداء من بلاد ما بين النهرين وامتداداً إلى منطقة الخليج، يعملون في إطار السلطة السياسية لمكتب الهند البريطاني وفي لندن وحكومة الهند، وكان مكتب الهند، شأنه شأن المكتب العربي، يربي المناطق التابعة له، لدعم هذا التوجه ورعايته^(١).

لقد جرى توظيف النزعة العرقية العربية كغطاء لكل التوجهات المناهضة للعثمانيين الذين تبنا سياسات التريك قبل ذلك، وعند سقوط الدولة العثمانية برزت مشاريع الدول العربية (البديلة) في ضوء السياسات الاستعمارية التي رسمتها بريطانيا وفرنسا لتجزئة وتفكيك المنطقة العربية. فجاءت تلك المشروعات وليدة عوامل مختلفة ومعقدة: الطائفة، العائلة، الثقافة المحصلة، الموقع الاقتصادي للقوى الاجتماعية. فإذا كانت كل هذه القوى مشتركة في كونها من التجار والملاكين في المناطق الريفية والقروية، فإنها مشتركة بشكل آخر في المناطق البدوية القبلية، وبالتالي فإن حجم تلك الملكيات الزراعية في الأرياف، ومناطق النفوذ القبلي في الصحراء، كان محددًا رئيسيًا للحيز الجغرافي لمشروع الدولة البديلة (جغرافياً وبشرياً)، وحتى لتحديد اسم الدول الأجنبية المنتدبة أو المساعدة في حال الاستقلال^(٢).

ومن جهة أخرى، كان توفير الحماية الخارجية للحكام المحليين وتثبيت الحكم في أيدي الأسر الحاكمة قد أوقف النخب القبلية، ومن ثم عطل القيود والضغط البنائية — كقوى مضادة للمجري العام في النظام السياسي للحالة الطبيعية — التي تعمل على تقييد سلطة الحكام، كما أوجد للحكام مصادر دخل بديلة للغنائم التي كانوا يحصلون

(١) جوزيف كوستنر: مرجع سابق: ٨ - ٩.

(٢) وجيه كوثراني: مرجع سابق، ٨٦.

ماجد الحسيني الحارثي

عليها من الغزو والسلب والنهب.. وأحياناً كانت الإدارة الاستعمارية تسهم في تمويل الحكام بشكل استثنائي، كما فعلت بريطانيا مع سلاطين ومشايخ حضرموت، أو مع الشريف حسين، أو السعودية الثالثة في سنواتها الأولى^(١).

ساند المسؤولون البريطانيون عن شرقي شبه الجزيرة العربية جميع الشيوخ والزعامات القبلية المحلية، عملاً بتوصيات الكابتن (وليام شكسبير William Shakespeare) الذي أجرى أول اتصال بعبد العزيز بن سعود بحث فيه مدى استجابته لمساعدة بريطانيا في مقابل أن يحصل على دعمها في تحسين فرصه الخاصة أمام منافسه الشريف حسين الذي تركت له بريطانيا مساحة واسعة للتفاهم مع الأتراك ومسايرتهم في سبيل تحقيق أهداف ثورته، فضلاً عن المنافسة التي كان يواجهها ابن سعود من قبل آل رشيد في زعماء جبل شمر المواليين للعثمانيين^(٢). وهي السياسة البريطانية الممتدة من قبل الحرب العالمية الأولى، ففي رسالة سرية بعثها من الكويت الكابتن شكسبير في الثامن من ابريل (١٩١١م) إلى المقيم السياسي في الخليج (بيرسي كوكس Percy Cox)، تضمنت تقريراً عن المحادثات التي أجراها شكسبير مع عبد العزيز ابن سعود، يؤكد شكسبير على صلاحية عبد العزيز لحكم العشائر العربية في بلاد العرب الوسطى والشرقية - يقصد نجد والاحساء، وأنه يتمتع بالكثير من الخصائص التي تجعله الأفضل بين منافسيه^(٣).

وعلى الرغم من وفاة شكسبير عام (١٩١٥م) والتي كادت أن تحد من علاقة بريطانيا بعبد العزيز بن سعود، إلا أن انقسامات حادة بين آل رشيد أنفسهم، أفادت المندوب البريطاني «كوكس» ما بين عامي (١٩١٦ - ١٩١٧م)، أجرى اتصالاً مع

(١) خلدون حسن النقيب: المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية من منظور مختلف، بيروت - مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٩، ٩٩.

(٢) جوزيف كوستنر: مرجع سابق، ٩ - ١٠.

(٣) نجدة فتحي صفوة: مرجع سابق، ١٥٦ - ١٥٧.

دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي

بعض المتصارعين من آل رشيد، هما دارى بن طوالة وفيصل بن فهد وكان كوكس يرمى إلى خلق ائتلاف يضم هذين الشخصيتين وسعود بن صالح السبحان، وهو زعيم رشيدي بارز في حائل تربطه علاقات مع جماعات عديدة من شمر، ونوري شعلان من قبيلة رواله النشطة في الصحراء السورية، وكان الاتصال بشعلان يعني اختراقاً لصفوف العثمانيين تتبعه عمليات قطع للاتصال بين العراق وحائل أو المدينة التي يسيطر عليها العثمانيون، في الوقت نفسه اعتبر كوكس أن ابن سعود هو الشخصية الأقوى التي يمكن الاعتماد عليها في القضاء على أي نفوذ عثماني في جزيرة العرب، ولم يكن يبقى سوى ازاحة الشريف حسين وحصر طموحاته الجغرافية على سوريا والعراق، لتخلو الجزيرة العربية لابن سعود^(١).

تكشف إحدى الوثائق البريطانية، وهي تقرير أرسله القنصل البريطاني في جدة إلى القنصل البريطاني في اسطنبول السير (جيرارد لاوثر Gerard Luther) في الحادي عشر من اكتوبر (١٩١١م)، عما كان يظهره الموظفين البريطانيون من ميل شديد إلى تدعيم موقف عبد العزيز بن سعود في مواجهته مع الشريف حسين، وإظهار هذا الأخير بموقف ضعيف لاستمالة الحكومة البريطانية في اتجاه دعم ابن سعود، إذ تشير الوثيقة إلى أن «الشريف حسين بدا متردداً ويرى نفسه غير قوياً بصورة كافية لمواجهة ابن سعود، ما مكن من عقد هدنة بين الطرفين في عام (١٩١٠م)، خاصة وأن هناك شكوكاً بنجاح حملة الشريف حسين على عسير»^(٢).

كما تشير الوثائق البريطانية إلى أن بريطانيا ظلت حريصة على أن تبقى العلاقة بابن سعود، وأن تظل أي محادثات بينه وبين الأتراك تحت رقابة بريطانيا وسيطرتها، للحيلولة دون أي تقارب بينهما قد يؤثر على مصالح بريطانيا، الأمر الذي وضحته رسالة من المعتمد السياسي في البحرين إلى المقيم السياسي في الخليج

(١) جوزيف كوستنر: مرجع سابق، ٩ - ١٠.

(٢) نجدة فتحي صفوة: مرجع سابق: ١٦٥.

العربي - بوشهر في مارس (١٩١٤م) (١).

بيد أن ترتيبات أخرى لوضع الجزيرة العربية كانت بريطانيا تجربها وتعد لها على قدم وساق، لاسيما فيما يتعلق برسم ملامح العلاقات السياسية والجغرافية للمشرق العربي، وهي الترتيبات التي تعلق أكثر بوضع شمال اليمن وإقليم عسير مقابل جنوب اليمن وحضرموت من جهة، وعدن التي تسيطر عليها بريطانيا من جهة أخرى. فكان المسؤولون البريطانيون في عدن، يهتمون أساسًا بالجزء الشمالي من اليمن وبأقاليم جنوب اليمن، فشحجوا حاكم عسير محمد الإدريسي، على التمرد على الإمام يحيى حميد الدين - زعيم اليمن الشمالي الموالي للعثمانيين - وكان حلفاء العثمانيين يضمون زعماء جبل شمر الرشيدية، وهم حلقة وصل هامة بمعقل العثمانيين في المدينة الذي لم تستولي عليها قوات الشريف حسين، بل ساعد الإمام يحيى العثمانيين في شن هجوم على عدن في عام (١٩١٥م) (٢).

يرى الباحث، أن بريطانيا أدركت في ذلك الوقت أن المشكلة تكمن في وجود الادريسي حاكم عسير، إذ أن استقلال إقليم عسير سيكون مثارًا لمشكلات كثيرة تعوق الترتيبات الجيوسياسية التي تسعى بريطانيا إلى تنفيذها على جزيرة العرب، والتي قضت بمساعدة ابن سعود الأقوى في مد سلطانه على أكبر قدر من المناطق بما فيها إقليم عسير، وإبقاء اليمن الشمالي محاصرًا من النفوذ البريطاني في جنوب اليمن.

على هذا الأساس، قامت بريطانيا بعقد معاهدة في ابريل (١٩١٥م) بين حاكم عسير محمد الإدريسي والسلطات البريطانية في عدن، قضت بأن يحصل الإدريسي على ألفي جنيه شهريًا مع الوعد بالاستقلال مستقبلاً في مقابل القيام بثورة ضد الإمام يحيى، كما وقع ابن سعود في ديسمبر من عام (١٩١٥م) معاهدة دارين مع كوكس حصل بموجبها على وعد بالاستقلال الفعلي مقابل أن يتخذ موقفًا داعمًا لبريطانيا، إلا

(١) نجدة فتحي صفوة: مرجع سابق: ٢٣١.

(٢) جوزيف كوستنر: مرجع سابق: ١٠.

دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي

أن البريطانيين توصلوا إلى حل وسط فيما يتعلق بقدرته السعوديين على المناورة في المنطقة، وذلك بجعل ابن سعود يضمن عدم التعدي على إمارات الخليج الخاضعة للحماية البريطانية^(١).

في الوقت نفسه، قامت بريطانيا بتمويل الشريف حسين في الحجاز وتسليحه وتعزيز جيش الثورة العامل وتدريبه بعد ديسمبر عام (١٩١٦م)، وذلك للقضاء على العثمانيين هناك، ولتمكين الهاشميين من التغلغل في سوريا بعد احتلال العقبة في يوليو من عام (١٩١٧م)، كل ذلك أدى إلى زيادة طموحات حسين في أن يصبح «زعيم القضية العربية» وأن يسيطر نفوذه على المناطق المحيطة، إلا أن صعود نجم الشريف حسين وبلوغه مرتبة الزعامة العربية أثار قلق الزعامات المحلية الأخرى بسبب أطماعه ونشاطاته وتصريحاته التي أدت إلى الاخلال بتوازن القوى بين الحكام المحليين وتهديد مراكزهم، وخصوصاً ابن سعود^(٢). فحتى عام (١٩١٦م) الذي نشطت فيه ثورة الشريف حسين في الحجاز، كانت بريطانيا ما تزال تتعامل بحذر شديد مع الشريف حسين وتبدو أكثر ميلاً للثقة بابن سعود، الأمر الذي يمكن عزوه إلى تلك السياسة المزدوجة التي اتبعها حسين في علاقاته مع بريطانيا والعثمانيين، وهذا ما تكشف عنه إحدى الوثائق البريطانية، التي تضمنت تقريراً عن زيارة مندوبها إلى الشريف حسين في مكة، والتي أشار فيها كاتب التقرير البريطاني إلى الجهود التي بذلها حسين في تفسير سياسته في الاحتفاظ بالمظاهر والعلاقة الشكلية مع السلطات التركية، بأنها لا تعدو كونها مجرد ستار يخفي وراءه نواياه الموالية لبريطانيا، والتي يأمل جاداً ألا تشكل الحكومة البريطانية في صدقها، حتى لو وردت تقارير تفيد بأن ابنه يرافق الحملة التركية ضد مصر^(٣).

(١) جوزيف كوستنر: مرجع سابق، ١١.

(٢) جوزيف كوستنر: مرجع سابق، ١١.

(٣) نجدة فتحي صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية: نجد والحجاز (المجلد الثاني)

١٩١٦، بيروت - دار الساقى للطباعة والنشر ١٩٩٦، ٢: ١٠٥ - ١٠٦.

كما كتبت في تلك الفترة البريطانية (غير ترود بل Gertrude Bell) صورة قلمية – مقالة – عن ابن سعود، تظهر نمط السياسات البريطانية في توظيف الحامل العشائري والقبلي سياسياً لتحقيق مصالحها في المنطقة، من خلال جهود كبار موظفيها في المنطقة في عقد اتفاقيات مع زعماء القبائل العربية، أشار فيها إلى الاتفاقية التي عقدها كوكس مع ابن سعود والتي – حسب تعبيرها – رسخت الصلات الوثيقة بينه وبين بريطانيا، وهي الصلات التي حصلت على التأييد العام في الاجتماع الذي عقد في الكويت في نوفمبر (١٩١٥م)، بحضور ثلاثة من زعماء العرب الأقوياء: شيخ المحمرة، وشيخ الكويت، وابن سعود حاكم نجد^(١).

ما كادت الحرب العالمية الأولى تنتهي حتى اضطرت مجلس الوزراء البريطاني للاعتراف بأن سياسته في الجزيرة العربية قد اختلت. فالخصومة بين حليفي بريطانيا الشريف حسين وعبد العزيز بن سعود، كانت قد بلغت أشدها. وقد اشتكى حسين من انه مضطر لإنفاق مبلغ كبير من الدعم البريطاني الذي يتلقاه، في سبيل الدفاع عن نفسه من هجمات ابن سعود، الذي يتلقى هو الآخر دعماً من بريطانيا^(٢).

وفي ذات السياق وبعد انتهاء الحرب كان فيصل بن الحسين قد اختار دمشق عام (١٩١٨م) عاصمة لإمارته القصيرة العمر، إلا أن تنوع المكونات العرقية فيها من غير العنصر العربي وخصوصاً الأكراد، وفي لبنان كالدروز والموارنة، فضلاً عن أهمية دمشق بالنسبة للمشروع الاستعماري الذي حرص على انفصال لبنان وفلسطين وشرق الأردن عن سوريا بعد اطلاق تصريح بلفور (١٩١٧م)، كل ذلك حال دون أن تكون دمشق والأجزاء الأخرى من سوريا ضمن المشروع الهاشمي، وبالتالي بقائها تحت سيطرة الانتداب الفرنسي، بعد تسريح الجيش التابع للأمير فيصل، وتمكن

(١) نجدة فتحي صفوة: المرجع السابق، ٨٠٥.

(٢) دافيد فرومكين: سلام ما بعده سلام: ولادة الشرق الأوسط ١٩١٤ - ١٩٢٢، ترجمة:

أسعد كامل إلياس، لندن - قبرص، رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٢، ٤٧٣.

دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي

القوات الفرنسية من اخماد الثورة الدمشقية في العام (١٩٢٠م)، بالإضافة إلى قمع الثورات المحلية الأخرى كثورة العلويين (١٩٢١م)^(١).

أدت سياسات الدول الكبرى إبان الحرب العالمية الأولى وما بعدها إلى تطورات اقتصادية في المنطقة وغيرت من العادات والولاءات القبلية، فطرق التجارة التقليدية ألغيت أو فقدت أهميتها، ومع انتشار الثورة العربية أقام البريطانيون حصاراً بحرية في موانئ كل من البحر الأحمر والخليج الفارسي ولاسيما في الحجاز والكويت، وهو إجراء ترك تأثيره على البدو الرحل وسكان المدن. وبالرغم من تخفيف حصار البحر الأحمر مع تقدم الثورة استمر حصار الخليج حتى عام (١٩١٨م)، وكان يهدف أساساً إلى تدمير خطوط تموين العثمانيين والرشيديين في ما بين النهرين؛ وعلى طول الطرق التجارية البرية الممتدة من شبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا، حتى حدث تغير آخر؛ إذ بسبب العداء القائم بين القبائل التي يساندها البريطانيون – أي تلك الخاضعة لسيطرة حسين وابن سعود: مطير وعتيبة وحرب وغيرهم – وقبائل شمر الموالية للعثمانيين، منى الجميع بخسائر فادحة في تجارة الخيول والجمال، وبعد أن احتل البريطانيون العراق في ربيع عام (١٩١٧م) حظر على قبائل شمر ارتياد أسواقهم المعتادة في قلب العراق، ولم يكن أمامهم سوى تهريب السلع إلى الكويت، وبات من الهام بصورة متزايدة أن نجد قبائل شبه الجزيرة وحكامها لأنفسهم طرقاً تجارية وأسواقاً ومصادر مالية بديلة^(٢).

لعبت السياسات البريطانية في المنطقة العربية إبان الحرب العالمية الأولى دوراً خطيراً في إعادة ترتيب العلاقات والتوازنات القبلية على أسس جغرافية واقتصادية وقبلية متعددة المحاور، أثارت المنافسات بين الحكام وأدت إلى نشوب المنازعات

(١) أكرم محمد عدوان: مدينة دمشق ومواجهة الاستعمار الفرنسي (١٩٢٠ - ١٩٤٦)، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، مجلة تبين، المجلد (١٨)، العدد (٢)، (٢٠١٠)، ٥ - ٧.

(٢) جوزيف كوستنر: مرجع سابق، ١٢ - ١٣.

القبلية من أجل السلطة الإقليمية والمصادر الاقتصادية الجديدة، وحتى يتسنى للمشيخات البقاء في ظل هذه الظروف؛ تعين عليها أن توسع من نطاق تحالفاتها وبسط نفوذها على القبائل المحيطة، وهكذا أصبحت السيطرة على المواقع الاستراتيجية ومصادر الدخل والجماعات القبلية محور المنافسات بين المشيخات في شبه الجزيرة العربية، تلك المنافسات التي دفعت كل حاكم إلى تطوير وسائل تحقيق الاندماج الداخلي وشن الحروب والتوسع، وأسفرت ضغوط الحرب وعملية الاندماج الداخلي عن تقوية المشيخات في المنطقة التي أدت بدورها إلى التوسع في الأراضي إلى حد وضع أساس للدولة يقوم على الأرض التي تسيطر عليها^(١).

على مدى النصف الأول من القرن العشرين، خضعت المؤسسات القبلية السياسية لتغيرات كبيرة واكبت عملية تشكل المشرق العربي الحديث، عندما تخلت النخب الحاكمة عن لباسها التقليدي، وحوّلته إلى دولة حديثة، ومتحولة أيضاً من نمط الاقتصاد الريفي والرعوي البسيط إلى نمط اقتصاد الدولة، والدولة الربعية بالذات بسبب اكتشاف النفط في المنطقة. فقد عمدت الكيانات السياسية الطامحة إلى إقامة دول مستقلة ومشكلة من أطياف عرقية وقبلية متنوعة خاضعة لحكمها، مستفيدة أولاً من القبيلة كعامل من عوامل بناء الدولة من جهة، وإلى إصلاح النظام القبلي من جهة أخرى. إذ تعود محاولات إصلاح هذا النظام إلى فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، عندما ظهر تيارين مختلفين: الأول بقيادة قوى مدفوعة بالحماس الديني الأصولي للحركة السلفية – مثل حركة الإخوان القبلية التي شكلها ابن سعود، وشيبه هذا التيار أيضاً ظهرت أشكال حضرية أخرى تجذرت في مصر وسوريا أثناء الكفاح من أجل الاستقلال – على غرار حركة الإخوان المسلمين. أما التيار الثاني: فيشمل التجار الوطنيين التحديثيين في الطبقة الوسطى، وكان مطلبهم

(١) جوزيف كوستنر: مرجع سابق، ١٣ - ١٤.

دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي

الأساسي السعي إلى إقامة أشكال ديمقراطية دستورية الحكم^(١).

استطاعت الدول الملكية الناشئة فيما بعد الحرب العالمية الأولى أن تستفيد من كافة العوامل والمتغيرات الداخلية والدولية، في تفتيت الولاء السياسي للقبيلة لصالح الولاء للنظام السياسي، وفي المقابل تخلت القبيلة تدريجياً عن وظائفها التي تتمتع بها لمصلحة الطبقات والحكومة معاً وفي الدرجة الأولى لمصلحة أبنائها الذين دخلوا أطر النخب الحكومية، حيث ظهر التعبير عن التغيرات حيال مضامين الولاء والهوية أثناء التحولات السياسية وأثناء عمليات التجنيد السياسي، إلا أن جوهر الهوية العامة للقبيلة لم يتغير بشكل جذري وبقت القبيلة قادرة على التكيف مع الأوضاع الجديدة وعلى إنتاج شروط استمرارية دورها في ظل الولاء للدولة ومؤسساتها ورموزها^(٢). حيث يبدو هذا المظهر جلياً في الملكية (المتوكلية) التي نشأت في اليمن (١٩١٨م)، والملكية الهاشمية في الأردن (١٩٢١م)، والملكية التي أسسها عبد العزيز آل سعود في جزيرة العرب (١٩٣٢م) والمملكة الهاشمية في العراق (١٩٣٢م).

يعزى ذلك إلى طبيعة الولاءات القبلية التي تظل من بين أكثر الولاءات رسوخاً في الحياة العربية، مما أدى لظهور تنظيم اجتماعي يقوم على مبدأ قرابة الدم الذي يحدد الولاءات والعصبية، من خلال القبيلة التي ظلت دائماً وحدة اجتماعية وسياسية واقتصادية قائمة بذاتها^(٣). فضلاً عما تتسم به التحالفات القبلية في أغلب الأحوال بالثبات والمنعة من الانهيار^(٤). وهي الخاصية التي استطاعت الملكيات العربية الناشئة أن تحسن توظيفها بدرجات متفاوتة تحت الغطاء الديني أو المذهبي أو القبلي الذي

(١) جمعة الزورق فرج بلعيد: دور القبيلة في الأنظمة السياسية العربية - اليمن نموذجاً، رسالة ماجستير، عمان - الأردن: جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١٥، ٤٠ - ٤١.

(٢) باسم الطويسي: مرجع سابق، ١٥ - ١٦.

(٣) جمعة الزورق فرج بلعيد: مرجع سابق، ٥٤.

(٤) مسعود ضاهر: مرجع سابق، ٣٤.

تبتته كل منها، كالمذهب الزيدي في اليمن، والوهابية السلفية في السعودية، والمكانة الدينية والاجتماعية لطبقة الأشراف التي تنتسب إلى البيت النبوي في سوريا والأردن والعراق، فضلاً عن تمسك الأشراف بالمذهب السني.

ومع ذلك، فقد كان للقبيلة دورًا بالغ في الانتفاضات والثورات الشعبية التي شهدتها بعض الدول العربية في الفترة (١٩١٤ - ١٩٤٧)، الأمر الذي دفع إلى إعادة ترتيب أوضاع القبائل والعشائر والحد من دورها المناهض. ففي العراق على سبيل المثال شهدت الحقبة الملكية عدة انتفاضات سواء من القبائل التي عارضت إصلاحات قانون الإصلاح الزراعي (ملكية الأراضي) أو من العراقيين الشيعة الذين شعروا بالتهميش. كانت القبائل الشيعية ترى أن القوميين من العرب السنة في بغداد يفتقدون الشرعية لأنهم علمانيون وتسيطر عليهم بريطانيا. وبعد القضاء على تمرد القبائل عام (١٩٣٥م) وحتى عام (١٩٤١م) كان الجيش هو اللاعب الرئيس في السياسة العراقية، لكن شرعت بريطانيا بعد عام (١٩٤١م) في التدخل العسكري دعمًا للتيار الليبرالي المتمثل بنوري السعيد والوصي عبد الإله في مواجهة ما أطلق عليه التيار الثوري بقيادة رشيد عالي الكيلاني^(١).

ظلت ظواهر الحياة الاجتماعية والسياسية في تلك الحقبة تدل على واقع يقوم على التحالف بين القبيلة التي تقوم على الولاء العشائري والقبلي، والذي يقسم المجتمع إلى مجموعات قائمة على صلة الدم والقرابة، وهذا من جهة، وبين الدولة من جهة أخرى، والتي تقوم على الولاء الوطني الذي يغطي السيادة على الأرض والموارد والسكان، ويتجسد حضورها في العلاقة مع الدول الناشئة المجاورة التي تحتفظ هي الأخرى بأصول قبلية كانت تتقاسم النفوذ في المنطقة من قبل. بيد أن هذا التحالف بين القبيلة

(١) أحمد عبد الحافظ فواز: التوظيف السياسي للقبيلة في العراق: من الملكية إلى ما بعد صدام، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد (٤٥٠)، أغسطس (٢٠١٦):

دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي

والدولة الذي اعتمدت عليه بالذات ممالك ومشيخات الخليج العربي والجزيرة العربية، كان ينطوي على مخاطر جمّة، تتمثل أبرزها في إمكانية أن تنقلب المنافسات والمنازعات بين القبائل تلك إلى عامل من عوامل هدم الدولة نفسها، الأمر الذي فرض على دول الخليج العربي أن تتعامل بازدواجية باهظة التكلفة في بناء الدولة والحفاظ عليها من خلال ضمان ولاء القبائل إليها بأي ثمن كان^(١).

يتضح هذا المسلك على سبيل المثال، في الاستراتيجية التي تبنتها الدولة السعودية في توظيفها للعنصر القبلي، تمثلت في تقسيم البلاد التي تحت سلطتها إلى إمارات تقوم على الأسس القبلية المتحالفة مع الأسرة الحاكمة، وتأمين الدولة من مخاطر التفكك أو التمرد، من خلال إقامة شبكة من التوازنات الدقيقة، كما جرى إلحاق القبائل بالإمارات إلحاقاً تبعياً، وجرى رسم حدود الدولة السعودية للحد من أثر ترحال القبائل وانتقالها من مكان إلى آخر، واتباع سياسة حدودية أجبرت القبائل على البقاء داخل حدود الدولة، في حين جرى أيضاً توطيد عشرات المشيخات القبلية في المناطق الساحلية^(٢).

جاءت سياسات التوطين البريطانية للقبائل بناءً على مصالحها أولاً، الأمر الذي يكشف عنه الموقف الذي اتخذته ابن سعود في مؤتمر العقير عام (١٩٢٢م)، حين أصر على ترسيم الحدود انطلاقاً من حدود حركة القبائل، ومطالبته بأن تكون حدود إمارة نجد والحجاز تابعة إلى الحد الذي يصل إلى القبائل التي تدين بالولاء له، وذلك فهماً وإدراكاً منه لسعة ذلك المفهوم وتوسعه، وهو ما رفضه المقيم السياسي البريطاني في الخليج (كوكس) رفضاً حاسماً، وأصر على ترسيم الحدود استناداً إلى معطيات جغرافية طبوغرافية، وليس استناداً إلى جغرافية الحركة والانتقال البدوية، كما أن

(١) محمد نجيب بوطالب: سوسولوجيا القبيلة في المغرب العربي، سلسلة اطروحات الدكتوراه

(٤١)، بيروت - مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢، ٨٥.

(٢) مسعود ضاهر: مرجع سابق، ٦٨.

العراق ضغطت بقوة ضد مطالب ابن سعود تلك، ونجحت في تعطيلها بدعم بريطاني واضح^(١).

أما في اليمن، فقد حالت ظاهرة تماسك البنية القبلية دون تمكن الدولة المتوكلية التي حكمت اليمن حتى مطلع ستينيات القرن العشرين، من فرض نفوذها وسلطاتها المركزية المباشرة عليها، كما حالت في الوقت نفسه دون محاولات الغزو الأجنبية التي كانت تهدف إلى احتلال اليمن والسيطرة عليها. فقد حافظ البناء القبلي على حضور قوي عبر استمرارية فاعلية القبيلة في الدولة. فمن جهة حافظ هذا الحضور القوي للقبيلة على الدولة وبقائها نسبياً، لكنه من جهة أخرى أضعف سلطاتها المركزية في المناطق القبلية^(٢).

وفي بلاد الشام (سوريا، الأردن، فلسطين، لبنان)، ورغم التغيرات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي شهدتها هذه البلدان في بداية القرن العشرين، إلا أن النظام القبلي العشائري ظل مؤثراً في بنية المجتمع، وقادراً على الاستمرارية والحضور الفاعل سياسياً في مختلف المحطات والمراحل والأحداث التاريخية، حيث لعبت العشيرة والقبيلة دوراً فاعلاً في البناء السياسي والعسكري للدولة لاسيما في الأردن وفلسطين. وإذا كان الاتجاه المائل للتحضر قد ساهم في تفكيك البنية القبلية بشكل واضح في سوريا ولبنان، فإن الأرياف في سوريا ولبنان حافظت على بعض الملامح الثقافية للبناء القبلي المنحل، من حيث يبدو أن حضور البنية الطائفية في المجتمعين السوري واللبناني قد عوض عن وجود البنية القبلية، الأمر الذي ينطبق إلى حد ما على البنية العشائرية في العراق^(٣).

أما في مصر فقد كان للقبيلة بمعناها المجرأ دورها الاجتماعي والسياسي في مناطق الصعيد جنوباً وفي سيناء شمالاً، غير أن التقاليد العريقة للدولة المركزية في مصر حدت

(١) غانم النجار: مرجع سابق، ١٢.

(٢) محمد نجيب بوطالب: مرجع سابق، ٨٧.

(٣) محمد نجيب بوطالب: مرجع سابق، ٨٩ - ٩٠.

دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي

من استمرار الفعل العشائري في الحياة السياسية في المجتمع المصري^(١).

بالإضافة إلى ما سبق، فإن خفوت دور القبيلة السياسي في مصر يعزى إلى قوة حضور النخب الوطنية وبروز الأحزاب والقوى السياسية فيها منذ وقت مبكر، والتي استطاعت أن توظف قطاعات مختلفة من المجتمع المصري في الحركة الوطنية. يتضح هذا في طبيعة العناصر المجتمعية التي قامت على أكتافها ثورة (١٩١٩م)، والتي تتمثل بما يلي^(٢):

١. **الفلاحون:** وهم من أطلق عليهم (أصحاب الجلايب الزرقاء) ويمثلون الطبقة الكادحة من الشعب المصري، وقد عانوا كثيرًا بسبب نظام الاحتكار الذي فرضه نظام محمد علي، ونظام السخرة الذي كانوا يدفعون إليه كرهاً - كما في مشروع حفر قناة السويس، ولما قامت الحرب العالمية الأولى، عانى الفلاحين المصريين من السياسات البريطانية، التي استهدفتهم بشكل مباشر وحرمتهم من حقوقهم الزراعية، فضلاً عن التجنيد الاجباري الذي فرضته عليهم، في الوقت نفسه الذي كانوا يبرزون فيه تحت وطأة كبار ملاك الأراضي.

٢. **العمال:** وهي الفئة الأخرى من الشعب المصري التي عانت كثيرًا من نظام الاحتكار، وتصعد نظام الطوائف الذي كان سائدًا في مصر مما زاد في سوء أحوال العمال وشعورهم بالظلم، وقسوة أصحاب رؤوس الأموال، وقد شعرت الأحزاب السياسية بذلك، وعلى رأسها الحزب الوطني فسارعت إلى بسط نفوذها على النقابات العمالية التي بدأت تظهر وتفرض وجودها.

٣. **المثقفون:** وهي أكثر الطبقات الاجتماعية التي شاركت في ثورة (١٩١٩م)، نظرًا لقوة هذه الطبقة واحتكاكها الحضاري بالحضارة الغربية، وبحكم شعورها

(١) محمد نجيب بوطالب: مرجع سابق، ٩١.

(٢) عبد الله عبد الرزاق ابراهيم وشوقي الجميل: تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر،

القاهرة - دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٩٧، ٢٨٧ - ٢٨٨.

ماجد الحسيني الحارثي

بالظلم أكثر من غيرها من الطبقات نتيجة حرمانها من الوظائف الكبيرة، وقد أدركت بريطانيا مدى خطورة هذه الطبقة، وسعت إلى احتوائها تارة وتارة أخرى إلى تحييدها، ولكنها فشلت، عندما نجحت هذه الطبقة بتأسيس نادي المدارس العليا، والذي أصبح فيما بعد معقل القوى المحركة لثورة (١٩١٩م). بالإضافة إلى دور الأزهر الشريف في الحركة الوطنية في ظل اتجاهات التجديد الفكري التي شهدتها.

الخاتمة

يتبين من خلال دراستنا هذه والمتمثلة في المبحثين السابقين:

أن المكون العرقي لم ينفصل يوماً عن المكونات الدينية والقومية التي لعبت دوراً بارزاً في توجيه مسار الدور الذي تقوم به الكيانات العرقية في تشكيل المشرق العربي وبناء الدولة العربية الحديثة في تلك الفترة، وإن كان الأساس العرقي على تماس دائماً مع الجغرافيا السياسية، ونازحاً أكثر إلى الاستقلال والانفصال منه إلى الوحدة والتماسك الوطني، كما في حالة النموذج الكردي، حيث ارتبطت الهوية العرقية بملاحمها الدينية والطائفية والأيديولوجية، مما جعل المسألة أكثر تشابكاً وتعقيداً عند تناولها من زاوية بعينها.

وأن الظروف السياسية والاجتماعية لتطور مجتمعات المشرق العربي في النصف الأول من القرن العشرين، تشير إلى أن القبيلة قد ساعدت على تشكيل المشرق العربي الحديث، من خلال دورها في نشأة وقيام الدولة العربية الحديثة. كما أدت الهيمنة الاستعمارية إلى انتقال مركز الثقل من المدن التجارية الساحلية إلى الداخل القبلي بعد الحرب العالمية الأولى، وبعد ظهور أهمية النفط الاقتصادية والاستراتيجية، وهو ما أدى إلى رسم وتشكيل الخارطة السياسية على ما كانت عليه طوال القرن العشرين وحتى اليوم.

دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي

وبالتالي، فإن الجذر الأساسي لتحول القبيلة إلى دولة والزعيم القبلي إلى زعيم دولة معترف بها عالمياً وعضو في هيئة الأمم المتحدة لا يمكن أن يفسر بعدد أفراد القبيلة فقط، أو بمدى الالتحاق بعجلة السياسة البريطانية أو الفرنسية في المناطق، بقدر ما أصبح يعود إلى ظهور النفط فيها وحاجة بريطانيا الدائمة إلى وجود الأسباب الكفيلة بإثارة النزاعات بين هذه الدول القبلية الناشئة، الأمر الذي يفسر بقاء معظم دويلات الخليج والمشرق العربي بكامله في حالة نزاع دائم على الحدود مع الدول الناشئة المجاورة.

كما يتبين أيضاً أن المكونات الحضرية كان لها دوراً مقابلاً لدور القبيلة، بل أنها من حيث الفاعلية والتنظيم والتأثير كانت أكثر حضوراً في المناطق التي ضعف فيها الحضور القبلي والعشائري، كما في حالة سوريا ولبنان ومصر، في الوقت نفسه الذي دخلت فيه المكونات الحضرية في صراع داخلي مع البنية البدوية، سعت الأنظمة السياسية العربية إلى توظيفه لصالحها بصور وأشكال شتى.

المراجع

أولاً: المراجع العربية

- إياد عايد والي البديري، التركيب الاثنوغرافي لسكان العراق وتحليل أثره في بناء الدولة واستقرارها، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد (١٣)، العدد (١)، (٢٠١٠).
- أحمد عبد الحافظ فواز، التوظيف السياسي للقبيلة في العراق: من الملكية إلى ما بعد صدام، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد (٤٥٠)، أغسطس (٢٠١٦).
- أكرم محمد عدوان، مدينة دمشق ومواجهة الاستعمار الفرنسي (١٩٢٠ - ١٩٤٦)، مجلة الجامعة الاسلامية للبحوث الإنسانية، مجلة تبين، المجلد (١٨)، العدد (٢)، (٢٠١٠).
- باسم الطويسي، دور العوامل الاجتماعية في التجنيد السياسي - دراسة في النخب الحكومية الأردنية في بداية مرحلة التحديث، (عمّان: جامعة الحسين، ٢٠١١).
- جمعة الزورق فرج بلعيد، دور القبيلة في الأنظمة السياسية العربية - اليمن نموذجاً، رسالة ماجستير (عمان - الأردن: جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١٥).
- جوزيف كوستنر، العربية السعودية (١٩١٦ - ١٩٣٦) من القبيلة إلى الملكية، ترجمة: شاكر سعيد (القاهرة، مكتبة مدبولي، ب. ت.).
- حيدر صبري شاكر الخيقاني، جذور التحديث الاجتماعي في العراق (١٨٥٠ - ١٩١٤) - دراسة تاريخية، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العدد (١٢)، يونيو (٢٠١٣).
- خلدون حسن النقيب، المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية من منظور مختلف، الطبعة الثانية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩).
- خيرة وفيقي، تأثير المسألة الكردية على الاستقرار الإقليمي، رسالة ماجستير (قسنطينة - الجزائر: جامعة منتوري، ٢٠٠٥).
- دافيد فرومكين، سلام ما بعده سلام: ولادة الشرق الأوسط ١٩١٤ - ١٩٢٢، ترجمة: أسعد كامل إلياس، الطبعة الأولى، (لندن - قبرص، رياض الريس للنشر، ١٩٩٢).
- ستيفن همسلي لونغريغ، تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ترجمة: بيار عقل (بيروت: دار الحقيقة، د. ت.).
- عبد الله عبد الرزاق ابراهيم وشوقي الجميل، تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٩٧).

دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي

- عمر الحضرمي، الدولة الصغيرة: القدرة والدور — مقارنة نظرية، مجلة المنارة، المجلد (١٩)، العدد (٤)، (٢٠١٣).
- غانم النجار، القبيلة والدولة في الكويت والجزيرة العربية (الكويت: جامعة الكويت، ١٩٩٦).
- فايز عبد الله العساف، الأقليات وأثرها في استقرار الدولة القومية — أكراد العراق نموذجًا، رسالة ماجستير (عمان: جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١٠).
- مايكل إم غينتر، كورد العراق: آلام وآمال، ترجمة: عبد السلام النقشبندى، ط ١ (أربيل — كردستان العراق: دار اراس للطباعة والنشر، ٢٠١٢).
- محمد نجيب بوطالب، سوسولوجيا القبيلة في المغرب العربي، سلسلة اطروحات الدكتوراه (٤١)، الطبعة الأولى (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢).
- مسعود ضاهر، المشرق العربي المعاصر من البداوة إلى الدولة الحديثة (بيروت: معهد الإنشاء العربي، ١٩٨٦).
- ميمونة خليفة العذبي الصباح، ردود الفعل التركية على اتفاقية الحماية البريطانية للكويت — مقارنة بين الوثائق الإنجليزية والعثمانية، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، المجلد (١٥)، العدد (٥٩)، (١٩٨٩).
- نجدة فتحى صفوة، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية: نجد والحجاز (المجلد الأول) ١٩١٤ — ١٩١٥، الطبعة الأولى، (بيروت، دار الساقى للطباعة والنشر، ١٩٩٦).
- نجدة فتحى صفوة، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية: نجد والحجاز (المجلد الثاني) ١٩١٦، الطبعة الأولى، (بيروت، دار الساقى للطباعة والنشر، ١٩٩٦).
- وجيه كوثراني، بلاد الشام في مطلع القرن العشرين: السكان والاقتصاد وفلسطين والمشروع الصهيوني — قراءة في وثائق الدبلوماسية الفرنسية، الطبعة الثالثة (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٣).

ثانيًا: المراجع الأجنبية

1. Craves Philip, The life of Sir Percy cox (London, 1951). 101.
2. F. O. 78/5114 Memorandum on Kuwait Confidential Foreign office (secret 29 Oct. 1901).
3. F. O. 78/5114 from Sir Nichola O'Conor to Lord Salisbury No. 228 (secret).
4. Phillip Knightley and Colin Simpson, The Secret Lives of Lawrence of Arabia, (New York, McGraw-Hill Book Company, 1969).